هكذا كانت الوحدة...في سيرة الرسول الأعظم (ص)!

الوحدة هى جوهرة ثمينة و قضية هامّة و استراتيجية و لها اهداف قيّمة حيث سعى الرسول الأعظم - ص - و منذ ثلاث و عشرين عاماً فى سبيل تكوينها و تعميقها بين الناس فى كلّ مكان و هذه هى وحدة فكريّة عقائدية و ثقافية ؛ و ذلک خلال بعثته الإلهية فى مكة المكرّمة و المدينة المنوّرة و قد نظّم - ص- مختلف شؤون الحياة الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية على هذا المنهج القيّم.

و سنسلّط الضوء هنا حول كيفية نشوء الوحدة الإسلامية فى عصر النبوّه و الخطوات الّتى قام بها الرسول الأعظم - ص- فى حركته الرساليّة لتشديد صرح هذه الوحدة.

قال ا - عز و جل- فى القرآن الكريم:

{كان الناس أمة واحدة فبعث ا النبيين مبشّرين و منذرين و أنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه من الحقّ بإذنه و ا يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم}

الوحدة الاسلامية و مسألة التوحيد

الحجر الاساس للدعوة المحمدية هو الوحدة بين الأمة و بين الشعوب العالمية حيث انّ النبى - صلى ا عليه و آله و سلم - منبعث من ا الواحد الذى يتمحور حوله كل شئ و إنّه - ص - دعا الناس إلى الطاعة و الانقياد أمام ربّ العالمين كما نزّل عليه الاية الكريمة التالية فى مكة المكرمة:

{قل يا ايها الناس إنّى رسول ا إليكم جميعا الذى له ملك السماوات و الارض لا اله إلّا هو يحيى و يميت فآمنوا با و رسوله النبى الأمى الذى يؤمن با و بكلماته و اتبعوه لعلكم تهتدون}

المخاطب فى الآية جميع الناس على وجه الارض من الأحمرو الأسود و الأبيض و ... و التفاتهم إلى خالقهم الوحيد الذى بيده حياة الأشياء و مماتها ، ثمّ ان ا - عزوجل - يطلب منهم الالتزام و الاعتقاد بما صدّق الرسول و اتباع كلمته . فتدعو الناس من الجنسيات المختلفه إلى ترک العصبيّة و العنصرية الفاسدة الّتى انهمكت و انغمرت إلى تخيلات واهية فأهلكت أسرة العرب حينما ظلّت عليهم الحروب الداخلية بين القبائل و بين الآحاد منهم سنوات عديده ظل العار.

القرآن الكريم

نزول الآيات الكريمة فى بداية الرسالة فى أم القرى و استمرارها فى المدينة خلال ٢٣ سنة، تحكى عن تنظيم و تشكيل مجتمع واحد من الناس باسم «أمّة واحدة» على الأرض من الأجيال المتقدمة و المتأخرة و أراد أن يعطى زمام هذه الأمّة الى رب العالمين و خالق الكونين الّذى بيده ملكوت كلّ شيء و له سلطنة كاملة تشمل حياة الموجودات و مماتها و حركاتها و سكونها من البداية إلى النهاية، و حيث تقاد هذه الأمّة بالقوانين الصادرة من المبدأ الاعلى تنتهى حركتهم الى الكمال المطلق و هو الوصول الى ا - عز وجل- و السعادة الأبدية. هذا من جهة و من جهة أخرى أن القرآن الكريم يكرم و يؤيّد ما صدر من الأنبياء و الرسل الالهية و يذكرها بالبر و الإكرام و اراد أن يجتمع تحت لواء واحد و كلمة واحدة و هى التوحيد و العبودية أمام ربّ العالمين و خالقهم و رازقهم و مبدئهم و معيدهم ....

فعلى هذا يقول ا - عز و جل- فى كتابه العزيز:

{إِنّ َ هذِهِ أُمّ َتُكُمْ أُمّ َةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبّ ُكُمْ فَاعْبُدُونِ}

و ايضاً يقول - عزّ من قائل- فى آية أخرى:

{يا أَيُّهَا النّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (*) الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِراشاً وَ السَّماءَ بِناءً وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}

فعلى هذا للقرآن دور خاص و مميّز لتنظيم «الوحدة بين الامم» و تطهيرهم عن العنصرية الفاسدة الّتى تنتهى الى فوارق موهنة و استثمار الطوائف و الاختلاف فى اللون و الجنس و الحدود الجغرافية و بالتالي اختلاف فى العيش من بلد الى بلد آخر كما نرى هذه الهتافات من الرأسمالية و الاشتراكية فى الغرب و الشرق...

قال ا - عز و جل- :

{يا أَيُّهَا النّاسُ إِنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى وَ جَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}

هذه الآية نموذج من دعوة القرآن لتوحيد الكلمة والاتّحاد.

سقوط التمييز العنصري

أجاب دعوة الرسول - ص- رجال و نساء من أجناس مختلفة و بلاد بعيدة كما رواه المجاهد قال : أوّل من أظهر الاسلام سبعة : رسول ا (ص)، ابوبكر ، خبّاب ، صهيب ، بلال ، عمار ، سميّه (أمّ عمّار)

و كذا رواه احمد بن حنبل سند اخر عن ابن عباس و اضاف فيه : اوّل من أسلم بعد خديجه على بن ابى طالب (ع).

فهولاء الرجال كل واحد منهم من بقعه خاصه و بعيده ، جذبه النبى (ص) فنرى انّ بلال حبشى و صهيب رومى و خبّاب نبطىٌ و سلمان ايرانى و عمار عربى و ..فتركوا عشيرتهم و قبائلهم و دخلوا فى حصين الاسلام

فانهم تمسكوا به فتشرفوا بواسطه الاسلام على العالمين فأذهب عنهم التميز العنصرى حيث كان هتاف الجاهليّه قال رسول ا (ص) : كل نبى بعث فى قومه خاصه و بعثت أنا إلى كلّ أحمر و أسود و أنّ بلالاً أوّل ثمار الحبشه و أنّ صهيباً اوّل ثمار الروم.

و قال على (ع) : السباق خمسة فأنا سابق العرب و سلمان سابق فارس و صهيب سابق الروم و بلال سابق حبش و خبّاب سابق النبط.

و هذه النظرة توجب الاتفاق و الاتحاد فى كلّ جيل و عصر و مكان، وكلّ من المسلمين و المؤمنين يحسّ الأخوة الالهية فيما بينهم و يحبّون البعض ، يتجسد هذا الحب الالهى فى تعاملهم و مساهمتهم فى القضايا الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية.

قال رسول ا (ص):مثل المؤمنين فى توادّهم و تراحمهم و تعاطفهم، مثل الجسد، اذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسّهر و الحمى.

كأنّ النبى - ص- دعا المجتمع الاسلامى الى وحدة بحيث يسير المجتمع فى جسد واحد و نهى عن التفرّق فى أيّة صورة و أيّة هيئة لأنّه يشلّ حركة المجتمع المسلم و يوهن المسلمون و الأحرار فى كل بلد و يضعفهم .

الدعوة إلى الوحدة فى بداية الرسالة

إنّ النبى (ص) بدأ بدعوته الالهية قبل هجرته و عرض نفسه على القبائل حينما كان المعارضون اكثر من الموافقين و الفرقة قاضية عليهم فكل قبيلة تحاول الغلبة على الاخرى فالأوس و الخزرج يتقاتلون سنوات عديده فشدت الحرب بينهم بحيث تفرّق جمعهم و تشتت شملهم .

حينذاك جاء ممثّل كل واحد منهم إلى مكه لكى يعقدوا حلفاً و ميثاقاً ليعين القريش الاوس و الخزرج فعلم النبى -ص- ذلك فرأى أن يستمعوا إليه بدل أن يعقدوا ميثاقاً يزيد العداوة و البغضاء بينهم و يورثها و لا يطفئها فدعا كل قبيلة إلى الاسلام الموحد لصفوفها و تلا عليهم القرآن الذى كان رحمة للعالمين ، فلقاؤه مع هذه القبائل كانت فى مرحلتين.

١- بيعة العقبة فى عام الثانى عشر من البعثة - سنتان قبل الهجرة- بعد مجيئهم عند النبى - ص-

دعاهم الى معرفة ا و عبادته و طاعته و الالتفات إلى المحاسن و الابتعاد عن سوء الأخلاق قال بعضهم لبعض يا قوم تعملون و ا أنه هو النبى الذى توعدكم به اليهود فأجابوه فيما دعا إليه و صدقوه و قبلوا منه ما عرض عليهم من الاسلام و قيمه العاليه فجاء فى ميثاق النبى -ص- ما نقله عبادة بن صامت و هو أحد أعضاء الوفد قال :

كنت فيمن حضر بيعة العقبة و قد بايعنا الرسول على أن لا نشرك با شيئاً و لا نسرق و لا نزنى و لا نقتل أولادنا و لا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا و أرجلنا و لا نعصيه فى معروف.

و كان الوفد مركب من الأوس و الخزرج ترأسهم سبعة من الخزرج و خمسة من الأوس حسب عددهم و كان الوفد المكوّن اثنى عشر نفراً ثم بعث الرسول معهم مصعب بن عمير إلى يثرب ليعلم أهلها الاسلام و يقرئهم القرآن الكريم و لم يمض عام حتى أصبحت كل أسرة من عرب يثرب تضّم فريقا ممّن دخل الإسلام على يد مصعب.

ترك النبى - ص- فى هذا الميثاق الدخول فى القتال او مساعدة جهة من الجهات المفرّقة بين الأمّة و العرب ، فسميّت هذه البيعة ببيعة النساء أو بيعة العقبة.. فهذه ما وقعت فى العام الثانى عشر من البعثة الموافق ٦٢٣ ميلادى.

٢- بيعة العقبة الثانية سنة الثالث عشر من البعثة.

قدم وفد من يثرب إلى مكّه عدده ثلاثة و سبعون رجلاً و امرأتان ،هم أقاموا فى العقبه الثانيه حتى قابلهم الرسول (ص) و معه عمه العباس بن عبد المطلب -كان على دين قومه - بدأ بالحديث فقال : يا معشر الخزرج أنّ محمّداً منّا حيث قد علمتم و قد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه فهو فى عزّ من قومه و منعة فى بلده و إنّه قد أبى إلاّ الانحياز إليكم و اللحوق بكم فإن كنتم ترون إنّكم وافون له بما دعوتموه إليه و مانعوه ممن خالقوه فأنتم و ما تحملتم من ذلك ، و ان كنتم ترون أنكم مسلمّوه و خاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن دعوه فإنه فى عزّ و منعة من قومه و بلده.

قال الخزرج : قد سمعنا ما قلت فتكلّم يا رسول ا - ص- فخذ لنفسك و لربّك ما أحببت. قال الرسول - صلى ا عليه و آله و سلم - بعد تلاوة آيات من القرآن و دعوتهم إلى ا و ترغيبهم إلى الاسلام:

"أبايعكم على أن تمنعونى ممّا تمنعون منه نساءكم و أبناءكم".

قال البراء بن معرور : نعم و الذى بعثک بالحق نبيّا لنمنعک مما نمنع به أزرنا - فبايعنا رسول ا - ص- فنحن و ا أبناء الحروب و أهل الحلقه ورثناها كباراً عن كبار.- ولكن اعترض ابو الهيثم بن اليتهان البراء قائلاً : يا رسول ا انّ بيننا و بين الرجال حبالاً و أنا قاطعوها (يعنى اليهود) فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلک ثم أظهرک ا أن ترجع إلى قومک و تدعنا.

فابتسم رسول ا - ص- و قال : بل الدم الدم و الهدم الهدم (يوضّح ابن هشام كلمة الرسول و يقول معناه : الحرمة أى حرمتى حرمتكم و دمى دمكم.)

ثم اتفق الرسول-ص- على أن يختاروا منهم اثنى عشر نقيباً يمثلون قومهم.

فاختاروا تسعة من الخزرج و ثلاثة من الأوس ، و هم اجتمعوا لبيعة الرسول -ص- حينذاک اكّد العباس مرّة أخرى على الميثاق و البيعة قائلاً : يا معشر الخزرج هل تدرون علامَ تبايعون هذا الرجل؟ قالوا نعم قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر و الأسود من الناس فإن كنتم ترون إنكم اذا انهكت مصيبة و أشرافكم قتلا اسلمتموه ،فمن الآن فهو و ا إن فعلتم خزى الأموال و قتل الاشراف فخذوه فهو خير الدنيا و الآخرة . قالوا فإنّا نأخذه على مصيبة الاموال و قتل الاشراف فمالنا بذلک يا رسول ا إن نحن وفينا بذلک؟

قال (ص) : الجنّة . قالوا ابسط يدک. فبسط يده فبايعوه ثم عادوا نقباء الخزرج و الأوس إلى يثرب و أظهروا ، الاسلام فاسلم بها عدد كثير من سادات بنى سلمة و أشرافهم.

فعرفت هذه البيعة -بيعة العقبة الثانية - ببيعه الحرب لأنّ َ الرسول -ص- بايعهم على أن يحاربوا معه الاسود و الأحمر و... وعدهم الجنّة. فنرى أنّ البيعة بينهما هى توحيد الصفوف تجاه العدو و قبول المواثيق المتفقة بينهم لكى يعملوا كل طرف من الجانبين على مواثيقهم فى المستقبل فى مدينه يثرب.

بالحقيقة تكوّنت الوحدة فى عهد الرسول -ص- فى مرحلتين .

المرحلة الاولى : الوحدة فى القضايا الفكريّه و العقائديّة التى تسوق الإنسان إلى ربّه و خالقه و هى سبب تأليف القلوب و تقريب النفوس و تعاضد الناس بعضهم بعضاً بحيث يحوّلهم إلى جسد واحد و يد واحدة إذا اشتكى عضو منها تداعى سائر الجسد فإنّ النبى (ص) أوجد هذه الوحدة الفكرية و الإيدئولوژية فى مكه المكرمة منذ ثلاثة عشرعام. و من ثمّ َ نرى انّ جميع السور المكيه تدور حول

الامور الاعتقاديّه يظهر فيها فساد عقائد المشركين و ضلال تصوراتهم و قبح عاداتهم و سوء النظام الاجتماعى و الاخلاقى و كانت فى نفس الوقت تحثّ الناس على عقيدة التوحيد التّى هى حقّ ا -عزّ و جلّ - على عباده لما فيها من صحة العبادة و التمسك بتعاليم الاسلام التى تدعو إلى مكارم الاخلاق و سّمو المبادئ التّى تمهّد إلى سعادة الدارين.

المرحلة الثانية : الوحدة و التضامن فى العمل و الفروع التى تترتب على الفكر الاسلامى من الجهاد و الدفاع تجاه العدو كما صرح النبى -ص- بها فى بيعة العقبة الثانية و الالتزام بأمور آخر كالصلاة و الصوم و الزكاة و الحج و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و غيرها من الأمور العباديّه و الأخلاقيه و السياسيّه ، التّى يحتاج المجتمع الاسلامى إليها و يكون قوامه و سلامته بالعمل بها.

أشار النبى - ص- إلى هذه المرحله فى بيعته مع نقباء الخزرج و الأوس قبل هجرته إلى المدينه و المسلمون تنفذوا أمر الرسول -ص- فى المدينة بعد رجوعهم إليها، فتكونت الوحدة الاسلاميّه فى المرحلة الثانيه حينما أراد الرسول - ص- أن يهاجر إلى المدينة مع أصحابه.